الأسرة في الإسلام

السيّد رسول العلوي[1]

كانت (الأسرة) على مدى التاريخ هي المؤسّسة الاجتماعيّة الرئيسة وأساس المجتمعات وأصل الثقافات والحضارات والتاريخ البشريّ، ويولي الإسلام بوجهٍ خاصٍّ، كمدرسةٍ إنسانيّةٍ، أكبر قدرٍ من الاهتمام لموضوع الأسرة؛ حيث يعتبر هذه المؤسسة المقدسّة مركزًا للتربية؛ فهو يرى أنّ السعادة والشقاوة للمجتمع البشري تعتمدان على صلاح هذا البناء أو فساده، ويعتقد أنّ الغرض من تكوين الأسرة هو توفير الحاجات العاطفيّة والروحيّة للإنسان، بما في ذلك تحقيق السكون والاطمئنان.

يحتوي القرآن الكريم على آياتٍ مختلفةٍ في هذا الصدد، التي تتحدّث عن سكن كلٍّ من الزوجين إلى الآخر، والحقوق المتبادلة للآباء والأبناء تجاه بعضهم البعض، وما إلى ذلك، والتي تُشكّل معًا تعليمات شاملة لتحقيق أسرةٍ إسلاميّةٍ وقرآنيّةٍ.

وقد وردت كلمة (البيت) ومشتقاتها ٧١ مرة في القرآن الكريم بصيغة المفرد والجمع (البيت والبيوت)؛ اثنتا عشرة منها بمعنى بيت الله، أي الكعبة، واثنتان بمعنى البيت

١. مدير تحرير مجلة (المصطفى)، جامعة المصطفى صلى الله عليه وآله العالميّة، قم، إيران. البريد الإلكتروني: alavi1403@yahoo.com.

العتيق، ومرّة بمعنى البيت المعمور، وجاء في الباقي بمعنى المنزل، أي بيئة الحياة الأسريّة.

وبالنظر إلى العديد من الآيات القرآنية التي تتناول كلمة البيت، يتبيّن أنّ هذا المكان المحدود المسقَّف، وهو مكان الاجتماع البشريّ والحياة الجماعيّة والبيئة الأولى للرشد والتربية، كان محل عناية الحق تعالى، ونظرًا لتأثيره ودوره في حياة الإنسان له أهميّة وآثار عظيمة، وفيما يلي ذكر بعض منها:

محلّ السكن والاطمئنان

إنّ أوّل وظيفة للبيت هو تأمين السكينة لأهله جسديًّا وروحيًّا، وهذا بالطبع مرهونٌ بتوفير الأمن الشامل لهذه البيئة، إنَّ المساحة المحدودة والآمنة للبيت هي مساحة للتعبير عن المشاعر والبوح بالأسرار وإشباع الغرائز وتلبية الحاجات الجسديّة والروحيّة للبشر، وينسب الله هذا السكن والأمان لنفسه؛ حيث يقول: ﴿**وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا**﴾.[١]

لفظة (السكن) تعني كلّ ما يَسكن إليه الإنسان ويستأنس به،[٢] إنّ الإنسان بالإضافة إلى الحاجة إلى السكن في البيت، يحتاج إلى مكان لتسكين الآلام الروحيّة، والتخلّص من بعض القيود الاجتماعيّة، وأخذ الراحة كما يشاء، وخلوة الاهتداء، ومناجاة الله والتفرّغ إلى الأهل والمحارم، وإذا لم يوفّر البيت هذه الحاجات، فلن يكون مسكنًا.

محلّ الذكر وتلاوة الآيات السماويّة

﴿**وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ**﴾،[٣] إنّ الآية موجهة إلى زوجات الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله، ويستفاد منها عدّة نقاط، منها: الفضائل التي يحصل عليها

١. النحل: ٨٠.

٢. مفردات الراغب، مادة «سكن».

٣. الأحزاب: ٣٤.

المرء من خلال البيت والأسرة قيّمة جدًّا، ويجب الحفاظ عليها وتطبيقها في الحياة.

ومن المؤكّد أنّ آل بيت الرسولﷺ هم أسوةٌ لجميع الأفراد والعائلات، فيجب أن يكونوا أحرص من غيرهم على امتثال أوامر الله، وعلى كلّ إنسانٍ أن يكون حاميًا لأهله ومنزلتها وسمعتها.

يعدّ البيت كبيئة للأنس والهدوء مكانًا قابلًا للاحترام والعناية، فإذا أصبح هذا المكان معبدًا لذكر الحقّ وعبادة الله، فإنّ الله يرفع قدرها ويعظمها تعظيمًا، كما قال تعالى لرسولهﷺ: ﴿**فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ**﴾.[١]

موضع العلاقة القدسيّة

إنّ الرفعة والعظمة الحقيقيّة خاصّة بالله سبحانه وتعالى، والبيت إذا وقع مسجدًا لله ومحلًّا لتسبيحه تعالى يصبح عظيمًا ورفيعًا، والمستفاد من الآية السابقة وكذلك تفسير المرحوم العلامة الطباطبائيقدّس سرّه أنّه إذا تنزّه البيت من كلّ قذارةٍ ورجسٍ وتزيّن بذكر الله وعبادته ينال رفعة وعظمة، ويخرج من كونه مجرّد أربعة جدران باردة لا روح لها، وكلما زادت صبغته الإلهيّة والمعنويّة زادت مكانته عظمة وعلوًّا، ومصداقها الأعظم هو الكعبة، بيت الله الحرام.[٢]

يقول الله تعالى: ﴿**فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِنْ عِنْدِ اللهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً**﴾،[٣] والمراد بعبارة «سلّموا على أنفسكم» هو التسليم على أهل المنزل، والسبب في عدم ذكرهم في الآية هو لأنّ المسلمين في وحدتهم كنفسٍ واحدة؛ لأنّ جميعهم بشر خلقهم الله من ذكر وأنثى.

---

١. النور: ٣٦.

٢. الطباطبائي، تفسير الميزان: ١٥/١٧٨– ١٧٩.

٣. النور: ٦١.

بالإضافة إلى ذلك، فإنّهم مؤمنون جميعًا والإيمان يجمعهم؛ لأنّه أقوى من أيّ عاملٍ آخر للوحدة، وقول الله تعالى: سلّموا على أنفسكم (أهليكم)، وبما أنّ السلام هو تعبير عن تحيّة مباركة إلهيّة، فإنّ أفضل طريقة لإقامة علاقة بين أفراد الأسرة هي تحية أحدهم الآخر بالسلام وذكرى الله فيما بينهم، وإن أقيمت هذه العلاقة المقدّسة في البيت، فلا شكّ أنّها ستمتدّ إلى المجتمع أيضًا؛ إذ إنّ حقيقة التحيّة هو بسط الأمن والسلام بين الناس.

ضرورة حفظ حريم البيت

حسب تعاليم القرآن، يحتلّ البيت مكانةً عاليةً لدرجة أنّه ينصح الجميع باحترام خصوصيّته؛ يقول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا﴾.[١]

يفيد الحصر في الآية المذكورة بأنّ الله يمنع من دخول بيت الآخرين بغير إذن وإلقاء تحيّة؛ وهو بذلك يحترم هذه الخصوصيّة ويعبّر عن ضرورة اتّخاذ ثقافةٍ صحيحةٍ وحميميةٍ في التعامل مع أهل البيت ويُعلّم الناس أنّ أفراد الأسرة يجب عليهم في علاقاتهم، بالإضافة إلى احترام جميع الشؤون الإنسانيّة في تعاملاتهم، والتعبير عن هذه الوحدة بألسنتهم كأقرب وأكثر وسيلة للتواصل، والسلام هي كلمة تحمل هذه الرسالة، فضلًا عن إيصالها تمنيات صاحبها بالصحّة والسلامة؛ لقد روي عن عدي بن ثابت، عن رجل من الأنصار قال: جاءت امرأة إلى النبيﷺ، فقالت: «يا رسول الله، إنّي أكون في بيتي على الحالة التي لا أحبّ أنّ يراني عليها أحد، فيأتي الأب فيدخل عليّ، فكيف أصنع؟»، قال: «ارجعي»، فنزلت هذه الآية.

---

١. النور: ٢٧.

«تستأنسوا» أي: تستأذنوا، وإنّ الاستئناس هو طلب الأنس،[1] وهذا يعني أنّه لا يجوز للمرء دخول أي بيت غير بيته قبل أن يتأكّد من وجود أهل البيت والاستئذان منهم للدخول؛ وعن ابن عباس أنّه قال: "هذا مقدّم مؤخر، إنّما هو «حتّى تسلّموا وتستأذنوا» وأمروا أن يقولوا: «السّلام عليكم، أأدخل؟»، فالسلام مستحبّ والاستئذان واجب".[2]

وقد اشترط ضمن الآية ٢٨ من سورة النور، في دخول أي بيت إذن صاحبه؛ ﴿**فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ**﴾،[3] وبالإضافة إلى هذا الحكم العامّ، ففي الآية ٥٣ من سورة الأحزاب، قد مُنع دخول بيت النبي دون إذنه صلى الله عليه وآله بوجهٍ خاصٍّ: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ**﴾.

تعريف الأسرة من منظور القرآن

الأسرة هي وحدة اجتماعيّة تهدف بحسب القرآن إلى توفير الصحة النفسيّة لثلاث مجموعات: الزوجين والوالدين والأولاد، كما تهدف إلى إعداد أفرادها للتعامل مع الظواهر الاجتماعيّة ومواجهتها.

وقد قال الله تعالى في الآية ٧٤ سورة الفرقان: ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾؛ تشير هذه الآية إلى أهمّيّة الأسرة وريادتها في تكوين مجتمعٍ بشريٍّ نموذجيٍّ؛ حيث إنّها تعرض روابط عائليّة سالمة ومشرقة باعتبارها المثل الأعلى للمتقين.

إنَّ الوالدين عنصران مهمّان ضمن الوحدة الاجتماعيّة للأسرة، بوصفهما نموذجين يَحتذي بهما الأطفال منذ ولادتهم، ويكمن دور الأسرة ومعنى أهمّيتها في تحسين

١. مفردات الراغب، مادة (أنس).

٢. تفسير الميبدي: ٥٠٩/٦.

٣. النور: ٢٨.

أوضاع البشر في هذه الحقيقة، في نظر قادة الدين، تعتبر معتقدات الآباء ونمط حياتهم وعاداتهم ورغباتهم وأهدافهم من بين أهمّ العوامل المؤثّرة في ذريّتهم؛ لذلك فإنّ نوعيّة سلوك الوالدين في التنسيق بين طلباتهما ورغباتهما من جهة ورغبات الأسرة ومتطلبات المجتمع من جهة أخرى، وكذلك جهودهما المستمرة لضمان الرفاهيّة والصحّة النفسيّة للأسرة وكيفيّة تعاملهما مع الواجبات الدينيّة والاجتماعيّة هي من بين العوامل التي تخلق جوهر التعاون والتضامن الاجتماعي لدى الأولاد.

ترتكز قيمة الأسرة أوّلًا وقبل كلّ شيء على المحبّة والصداقة بين أفرادها؛ الأفراد الذين جمعتهم الحقوق المتبادلة تحت سقفٍ واحدٍ، وإذا استمرّ هذا الاجتماع على أساس الصداقة والتفاهم ورفض الأنانيّة، فسيؤدّي إلى الكمال الإنساني المنشود، وأمّا الأسرة في القرآن فهي مدرسة حبٍّ وصداقةٍ؛ لقد جاء في الآية ٢١ من سورة الروم: ﴿**وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ**﴾؛ وفي هذه الآية ثمّة نقاط مهمّة حول الأسرة تستحقّ الدراسة:

١. **(من أنفسكم أزواجًا)**: بناءً على هذا التعبير، فإنّ العلاقة بين الزوج والزوجة هي أحد الجوانب المهمّة للأسرة، وكما أسلفنا أنّ الإنسان كائنٌ اجتماعيٌّ يعتمد نموّه ورشده وتكامله على إقامة علاقات مع الآخرين، ومواجهة صعوباتٍ ومشاكل في هذا المسار؛ لأنّ الطريق إلى الكمال لا نهاية له، وفي كلّ مرحلةٍ من مراحل الحياة والكمال، هناك سلسلة من الحاجات الداخليّة الخاصّة التي تظهر أثناء العلاقة مع الآخرين وهي انعكاس لحاجة الإنسان الداخليّة نحو ميوله ومُثُله، إنّ العلاقة بين الزوجين ما هي إلّا صلة صداقةٍ محضةٍ دون أي دافع آخر؛ فمن خلال تكوين الأسرة يتمّ الكشف عن نقاط الضعف والقوّة الكامنة في شخصيّة الإنسان في مأمنٍ من أيّ هاجسٍ أو تحفّظٍ، والأسرة هي بيئة يمكن فيها معالجة المشاكل بطريقةٍ طبيعيّةٍ أكثر من أيّ مكانٍ آخر؛ لأنّه بالتسامح والمحبّة والوفاء والثقة المتبادلة بين الزوجين تتوافر أرضيّة الكشف عن

السلبيّات الشخصيّة وفحصها والتخلّص منها من خلال تحسين الذات؛ لذلك فإنَّ الرجس الباطني في نظر الإسلام أسوأ من الرجس الظاهري، وإنّما الأسرة هي البيئة التي يوجد فيها احتمال ظهور جوانب سلبيّة في الشخصيّة دون خوفٍ من عواقبه، فيمكن من خلالها التخلّص من نقاط الضعف هذه. وباختصار يمكن الوصول إلى أصعب المقاصد من خلال قوّة الحبّ والعاطفة.

٢. **(لتسكنوا)**: السُكنى هو نيل مقام السكينة والاستقرار، وهذا التعبير القرآنيّ يشير إلى حقيقة أنّ السكن هو عبارةٌ عن مقامٍ ومكانةٍ لابدّ للمرء من الوصول إليها في عالم الوجود ومن منظار القرآن؛ فإنّ واجب الأسرة هو تمهيد أرضيّةٍ لهذا الهدف المنشود سواء للوالدين أم ذريّتهما.

٣. **(وجعل بينكم مودّة)**: النقطة الثالثة المهمّة في الأسرة هي وجود الحبّ بين الزوجين؛ إذ لا ينال الأزواج السكينة والاطمئنان إلّا بالتعامل الودي والتعامل في سبيل معرفة النفس ومعرفة الله، والسير في الوادي الإلهي الآمن؛ وهذا هو سرّ استخدام العبارة (لتسكنوا إليها) في الآية الكريمة.

٤. **(ورحمة)**: هي مبدأ اللطف؛ فإنَّ تآلف الزوجين وتعاونهما بقوّة العشق والمحبّة في منحى الكمال يجلب الرحمة والمودّة لأفراد الأسرة وغيرهم؛ لذلك فإنّ العلاقة السالمة والصحيحة هي التي توفّر أرضيّةً مناسبةً لإقامة علاقةٍ مسؤولةٍ ودائمةٍ، وهذا ما يأخذه اليافعون في بداية مشوارهم مثالًا عمليًّا لهم، وينظرون إليها على أنّها نموذج يُحتذى به في علاقاتهم المستقبليّة مع المجتمع الإنسانيّ.

إنّ عواقب سلوك الوالدين (تجاه بعضهما البعض) هي أهمّ من دورهم المحسوس في التعامل مع الأولاد؛ فإنّ أسلوب تعامل الوالدين بعضهما مع بعض يبني حجر الأساس في الشخصيّة النفسيّة للأولاد، والتي إن صحّت جلبت الرحمة، والمراد من التوافق والتفاهم بين الأزواج هو بذل مزيد من الجهد نحو الرشد المتبادل والتكامل رغم

الاختلافات الطبيعيّة والذاتيّة، وليس مجرّد التسامح بينهما، فكما أنّ هناك سلسلة من الفوارق الجسديّة بين الرجل والمرأة، هناك فوارقٌ روحيّة ونفسيّة بينهما أيضًا، كما تشير إليها الآية الكريمة: ﴿وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى * إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى﴾،[١] وبالنظر إلى أمزجة الناس المختلفة والتفاوت في شخصيّاتهم، فهذا التشتّت المشار إليه ليس مجرّد اختلافٍ جسديٍّ، ولا علاقة له بالأنوثة والرجولة، بل إنّ الظروف الاجتماعيّة والأسرة والثقافة هي العناصر المؤثّرة التي تبني شخصيّة الإنسان وتخلق ثنائيّات في سلوك الرجل والمرأة وتعاملهما بعضهما مع بعض، وهاهنا تتحدَّد مهمّة الأسرة، والتي تعني التفاهم والصداقة المتبادلة، للتعامل مع الرغبات والميول المختلفة والتفاعل معها كعناصر مكوِّنة لشخصيّة الإنسان.

وقد يتطلّب هذا الأمر الصدق والثقة والتواضع والتقوى وتجنّب الأنانية، ويحث الأبناء على اتّباعها في علاقاتهم الاجتماعيّة مع الناس، بحيث يتقبّلون الفوارق الفرديّة والاجتماعيّة والثقافيّة للآخرين كمثل الفوارق بين والديهم، ويعتبرونها من عوامل التكامل؛ وهذه النظرة (الإيجابيّة) هي التي توفّر الأساس للتفاهم بين الأمم والتقريب بين المعتقدات المختلفة ويسبّب السلام والأمن على المستوى الدولي؛ فعلى الوالدين تربية أولادهم على هذا المبدأ، ووفقًا لتوصية الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله، فإنّ الأبناء ليسوا من مِلك الوالدين، بل هم أمانة بأيديهم فعليهم رعايتهم؛ فإنّ الطفل بحاجة إلى محبّة والديه ولطفهما في رشده وتكامله، وأمّا المودّة والرحمة، فلهما أثران رئيسان:

الأوّل: تكوين الجوهر الأساس للتكامل وخلق الثقة والاطمئنان في روح الطفل.

الثاني: توفير أرضيةٍ لانبثاق روح المودة والرحمة في علاقة الطفل مع غيره.

كما يحمل الأولاد أيضًا مجموعة من المسؤوليّات تجاه والديهم، فمن وجهة نظر القرآن

---

١. الليل: ١٤.

ينبغي أن يتعامل الأولاد مع والديهم بالاحترام والمحبّة؛ فقد قال الله تعالى: ﴿**فلا تقل لهما أفّ**﴾، وتجب رعاية الأولاد لوالديهم، كما قال سبحانه في سورة الإسراء: ﴿ **وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا * وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا**﴾.[١]

ولا شكّ أنّ هذه الدعوة إلى الاحترام لا يعني تشجيع الأولاد على تقليد الوالدين واتباعهم دون تفكير؛ لأنّ هذا أمرٌ خاطئٌ من وجهة نظر القرآن، فمن منظور القرآن أنّه يجب على كلّ إنسان أن يميّز الطريق الصواب عن الخطأ، والهداية من الضلال، كما ورد في الآية ٢١ من سورة لقمان: ﴿ **وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ**﴾.

ومن ناحية أخرى، فإنّ التأكيد المستمرّ على الدور المحوري للأسرة في رشد الأطفال وتنمية شخصيّتهم، يجب ألّا يفسَّر بطريقة توحي إلى (الانطباع الخاطئ) أنّ الشخص الذي بلغ رشده لا يزال يعجز عن التحوّل الوجودي والتكامل، كلّا بل إنّ الإنسان مسؤولٌ عن أفعاله بأيّة حال: ﴿ **كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ**﴾،[٢] وقال تعالى في الآية ٢١ من سورة الطور: ﴿**وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ**﴾.

ورغم دلالة القرآن الواضحة على المساواة بين الرجل والمرأة، مع الأسف أنّ المرأة تتعرّض في بعض المجتمعات الإسلاميّة للاضطهاد في الأسرة أو على مستوى المجتمع؛ طبعًا هذا لا يعني أنّ وضع المرأة أفضل في الدول الأوروبيّة وهي تتمتّع فيها بوضعٍ إنسانيٍّ

---

١. الإسراء: ٢٣-٢٤.

٢. المدثر: ٣٨.

لائقٍ، بل المرأة تضطهد هناك أيضًا لكن بطريقة مختلفة؛ فمن أسباب اضطهاد المرأة آليات المجتمع والمعتقدات السائدة في المجتمعات البشريّة، والسبب الآخر هو أنّ المرأة عبر التاريخ، لم تراجع مباشرة النصوص لفهمها وتفسيرها إثباتًا لحقوقها، بل في معظم الحالات تركت هذه الوظيفة للرجال.

وعلى الرغم من الفوارق الفسيولوجية بين الرجل والمرأة، إلا أنهما متساويان في الإنسانيّة روحيًّا ومعنويًّا: ﴿**إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ**﴾،[1] فمن منظار الإسلام مادام أنّ الإنسان حرّ من قيود التجاذبات والتعلّقات المادّيّة فهو يسير نحو الكمال والرشد المعنوي، وهذه القابليّة (نيل الكمال) متوفّرة في كلا الجنسين، ذكرًا كان أم أنثى؛ فإنَّ الاعتماد على مبدأ الجنس في حقوق الأسرة؛ حيث لا تنحصر قيمة الارتباط والاتّحاد في دائرة العلاقات الفيزيولوجيّة الضيقة يؤدّي إلى تخلّف المرأة.

وبالنظر إلى هذه الحقيقة - أي التمييز وعدم المساواة بين الرجل والمرأة في بعض الأسر المسلمة - ذهبت مجموعة من النقاد المتحيزين في الغرب والشرق، إلى القول بأنّ حقوق المرأة في الإسلام أقلّ من حقوق الرجل، ويمكن ذكر ردّ على ذلك بالقول إنّ نتائج بحوثنا وقراءتنا للإسلام والقرآن تشير إلى واقع آخر، ونحن ننظر إلى القرآن على أنّه مجموعةٌ متماسكةٌ ومتّسقةٌ، كما صرّح القرآن بالذات أنّ بعض آياته محكماتٌ وبعضها متشابهات، فلا يمكن فهم بعض من الآيات وتفسيرها إلّا في ضوء آيات أخرى، فنحن نستخدم الطريقة التالية لتنظيم حقوق الأسرة بشكلٍ عادلٍ:

• فمن منظار القرآن، إنّ الرجل والمرأة متساويان في الخلق؛ وقد جاء في الآية الأولى من سورة النساء: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً﴾.

---

١. الحجرات: ١٣.

• إنّ فرص تحقيق مراحل الرشد والكمال الإنساني سواسية للذكر والأنثى؛ وفي هذا السياق تقول الآية ١٣ من سورة الحجرات: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ...﴾.

• إنّ الرجل والمرأة متساويان من حيث الأجر والثواب؛ وفي هذا السياق وردت الآية ٣٥ من سورة أحزاب وهي جديرة بالملاحظة؛ فمن أجل تحقيق هذه المجالات الثلاثة التي ذكرها القرآن مرّات عديدة بشكلٍ عادل، فمن الضروري توفير شروط الرشد والكمال للرجل والمرأة على حدٍّ سواء.

ويدعو القرآن في أغلب الأحيان الناس إلى التدبّر والتفكّر والتأمّل في القضايا المتعلّقة بالإنسان والطبيعة، ويشجّعهم على فهم الآيات الإلهيّة والإنصات إليها والاعتبار بها، ويذكر القرآن الإيمان والعمل الصالح بجانب بعضهما البعض كأمرين مترادفين؛ وهل يمكن تجاهل عنصرَي الزمان والمكان في العمل الصالح؟ ومن المعلوم أنّه قبل طلوع فجر الإسلام لم يكن هناك للمرأة حقّ؛ فكانوا يئدون البنات أحياء وكان للرجل الحق في الزواج بأي عدد يشاء؛ فأصبحت تعاليم الإسلام الحامية لحقوق المرأة حينذاك كظاهرةٍ جديدةٍ ومتقدّمةٍ تمامًا بالنسبة لذاك العصر؛ لأنّ دين الإسلام جاء لتغيير الإنسان وتنميته، وأفضل طريقة لتحقيق هذا الهدف هو التغيير التدريجي؛ إذ إنّ التغيير الدفعي وطمس التقاليد والعادات الاجتماعيّة بين ليلةٍ وضحاها لم يكن صحيحًا ولم يكن مفيدًا، أمّا اليوم - وفي ضوء تلكم الحقائق القرآنيّة التي تؤكّد على المساواة في القيمة الوجوديّة بين الرجل والمرأة ودعوة الناس إلى التفكير والتأمّل في آيات الله البيّنات واستخلاص النتائج والنصائح الحكيمة منها - فيمكن القول إنّ حقوق الرجل والمرأة في الأسرة متساوية، والمعيار في إدارة كلّ منهما في شؤون الأسرة هو التقوى والاستحقاق وليس الجنس.

وهنا يجب أخذ نقطةٍ أخرى في الاعتبار، وهي أنّه إذا لم يتمكّن الرجل والمرأة من

نيل التفاهم والتقارب المتوقَّعين، وابتعدا بعضهما عن بعض بسبب الخلافات الناجمة عن نوعِ علاقتهما وسلوكهما، تأذن الشريعة الإسلاميّة في مثل هذه الحالات بالطلاق كآخر حلٍّ مع الكراهيّة.

الأسرة المثاليّة من منظار القرآن

إنّ أسس الأسرة تدلّ بدورها على قيمتها الروحيّة وقداستها؛ لأنّ القرآن الكريم يعتبر الأسرة مؤسّسة مقدّسة قائمة على عدّة أركانٍ معنويّةٍ، منها السكن والطمأنينة، والمحبة والمودة، والشفقة والرحمة، والتعاون، وهي تتضمّن الأنس والألفة في طياتها.

الحبّ أساس الأسرة

إنّ أمعنَّا النظر وفكّرنا مليًّا لَفهمنا بوضوح أنَّ الحب ليس ركنًا من أركان الأسرة فحسب، وأنّما يلعب دورًا لا مثيل له في القوام والبقاء والتوازن بين الأسس الأخرى لدرجة أنّه يمكن القول إنّ الحبّ هو «روح العائلة» أو أنّ الأسرة هي «ملاذ الحبّ وعُش المحبّة»، ويستدلّ العلماء بهذه الآية ﴿**خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً**﴾،[١] وكذلك هذه الآية: ﴿**هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا**﴾؛[٢] على أنّ أساس العلاقات الاجتماعيّة داخل الأسرة من الصداقة والتفاهم والتعاون، إنّما هي مجبولة ومعجونة بإكسير الحب؛ ومن هذا المنطلق فإنّ الإشارة إلى النفس الواحدة في الآية الأولى من سورة النساء تدلّ على حقيقةٍ، وهي أنّ مؤسّسة الأسرة هي ظرف لتكامل الروح وسعادة الإنسان من ذكرٍ أو أنثى حتّى الوصول إلى قمّة الكمال الإنساني، فلا الرجل كاملٌ وحده ولا المرأة، ولا يمكنهما نيل العُلى إلّا من خلال التقارب والتلاحم والتعايش ضمن الحدود المقرّرة في نظامٍ خاصٍّ يسمّى مؤسّسة الأسرة، وهي منطلق السير نحو الكمال.

---

١. الروم: ٢١.

٢. الأعراف: ١٨٩.

ومُستقرّ الإنسانيّة هو الجانب المعنوي للإنسان؛ حيث يتّحد فيه الناس ويمكنهم التعايش بشكلٍ صحيحٍ (كما أمر الله)، والغاية من الحياة ومصيرها المؤدّي إلى فلاح المرء أو هلاكه رهن التعامل مع الناس الآخرين؛ فإنّ مخالطة الناس والتعايش معهم هو الذي يعطي معنًى لجميع المقولات المطروحة والقابلة للفهم في ساحة الحياة، فلا تجد أيّ معنى لمصطلحاتٍ كالخير والشر، والسعادة والشقاوة، والسكينة والاضطراب إلّا أثناء التعامل والاحتكاك في العلاقات الإنسانيّة؛ لهذا فإنّ الإنسان كائن اجتماعيّ، وليس لديه خيار سوى العيش في المجتمع.

فأوّل مجتمعٍ يجربّه الآدمي في حياته ويتعلّم فيه كيفيّة العيش في مجتمعٍ إنسانيٍّ والتعاون والتعايش مع سائر الناس، كما تتطلب الطبيعة البشريّة هو الأسرة، وهكذا تتكوّن النواة الأولى للمجتمع الإنساني، فإذا شبّهنا المجتمع البشريّ بجسدٍ واحدٍ، فيمكننا اعتبار الأسرة أوّل خليّةٍ مولّدة لها.

وبناءً على هذه الفلسفة الوجوديّة، يقول المفكرون إنّ:

الأسرة هي مدرسةٌ مناسبةٌ لتنمية الإنسان وتنشئته الاجتماعيّة، ومأوى وملاذٌ آمن له في سبيل مواجهة صعوبات العيش في المجتمع الإنساني ومعاشرة الناس والتواصل مع الغير من خلال استخدام الأدوات والإمكانات الضروريّة الموجودة في مؤسّسة الأسرة، ممّا يوفّر له سائر أفراد الأسرة.

ومع هذا التضامن الأخلاقيّ والحقوقيّ، يحتلّ الشعور بالواجب تجاه الآخر موقعًا أكثر أهمّيّةً من الرغبات والحاجات الجنسيّة في العلاقة الزوجيّة، وبهذا الحافز يمكن للزوجين مزج الحبّ بالأخلاق لخلق بيئة مواتية للنمو الجسدي والارتقاء الروحي والمعنوي لأولادهما.

إنَّ ماهية الأسرة هي أن تأخذ المشاعر والعواطف مركزها الأول فيها، وكما يقول أحد الخبراء: «طبيعة الأسرة لا تنسجم أبدًا مع القوانين والأحكام القسريّة»، والقانون ليس له تأثيرٌ يُذكر في تنظيم الأسرة، بينما كانت أبواب الأسرة مفتوحة دائمًا للقيم الدينيّة والأخلاقية؛ لأنّ حديقة الزهور المتعطشة للضوء وأشعة الشمس، لا تستمد حياتها من

الشمس فحسب، وإنّما يتوقّف تدفّق طاقتها واستمرار بقائها على ضوئها المشرق.

يوضح الشيخ الرئيس أبو علي سينا من خلال رسالةٍ مكانة الأسرة وأهميتها وأركانها وكيفيّة العلاقات بين الزوجين وكذلك الوالدين والأولاد، وهي مسمّاة بـ «تدابير المنازل أو السياسات الأهليذة» وقد طبعت مرّة بعنوان «في السياسة المنزلية»، وقد رسم فيها صورةً واضحةً للأسرة المثالية بشأن تربية الأولاد الصالحين، والتي هي أساس بناء مجتمعٍ صالحٍ.

وقد أكّد الحكيم ابن سينا في شرحه لأهداف الأسرة المثالية القائمة على المعايير الأخلاقيّة والعاطفيّة المتحوّرة حول الدين، على ثلاثة دوافع اقتصاديّة واجتماعيّة وعاطفيّة (السكون والمودة)، ويقول في تبرير الدافع الأول: «إنّ الإنسان يحتاج إلى مسكنٍ لحفظ أمواله وادّخارها لوقت الحاجة، وزوجته هي خير شريكةٍ وصاحبةٍ له في هذا الصدد»؛ ووفقًا لوجهة نظر ابن سينا: فإنّ الزوجة الصالحة هي شريكة الرجل، ومحافظة على ماله، وخليفته في بيته، ومؤتمنه في تربية الأبناء.

وقد وصف ابن سينا الزواجَ في "الشفاء، باب الإلهيّات" على أنّه «خير أركان المدينة»، وقال في شرح الدافع الاجتماعي لتكوين الأسرة:

> **يحتاج الوالدان إلى أولاد لمساعدتهما في حالة العجز والشيخوخة، وإدامة نسلهما، وإحياء ذكرهما بعد الموت.**

ووفقًا لابن سينا لا يتحقق السكون الداخليّ والطمأنينة إلّا في ظلّ الزواج واختيار الزوج، وهذه النقطة تُظهر بجلاء تأثُّر ابن سينا بتعاليم القرآن الكريم.[1]

ونظرًا لمكانة الأسرة المهمّة في الإسلام، فقد خصّصنا هذا العدد من مجلة المصطفى صلى الله عليه وآله لهذا الموضوع.

١. مقتبس من مقال «خانواده از منظر قرآن» [الأسرة من منظور القرآن] للسيدة عذرا طباطبائي حكيم.